الآليات الحجاجية البلاغية_في الخطاب النبوي الشريف

رابح كريبع: طالب دكتوراه
اسم ولقب المشرف: محمد مدور؛ الرتبة: أستاذ محاضر أ
مخبر: تحليل الخطاب والدراسات المعجمية والأدبية المقارنة
جامعة: غرداية

ملخص:

يعتبر الحجاج فعالية خطابية تداولية وممارسة فكرية واعية يعتمدها المتكلم للتأثير_في المتلقي بغية إقناعه أو تغيير معتقده أو سلوكه، إذ يعتمد الخطاب الحجاجي على عدة آليات فعالة من بينها الآليات البلاغية، وقد جاء الحديث النبوي الشريف كأحد أبرز الخطابات الحجاجية الموجهة للناس، وهذا ما يحيلنا إلى التساؤل حول حجاجيته: فما هي أبرز الآليات الحجاجية البلاغية التي أفاد منها الخطاب النبوي الشريف ؟

الكلمات المفتاحية:

الحجاج ــ الآليات الحجاجية ــ الخطاب الحجاجي ــ الآليات البلاغية ــ الخطاب النبوي

Abstract:

The summary We consider The effectiveness of the rhetorical argument as a daily and practice thinking and conscious, the speaker relies it to convince the listner To change his belief and behaviour . Rhetorical argument relies on many effectiveness tools such as rhetorical tools ,Alhadith of the prophet Mouhamed was one of the famous rhetorical argument to people. What led us to many questions about his rhetorical. So what are the famous rhetorical tools which the rhetorical of Alhadith Acharif benefit them?

Key words : _Arguments _ mechanisms of argument _ argument speech _rhetorical mechanisms _ prophetic speech

مقدمة:

يعد الحجاج من بين أهم النظريات التي تهتم بها التداولية، حيث يرتكز على دراسة الطريقة والأسلوب اللذين يتبناهما المتكلم للتغيير من معتقدات المتلقي وإقناعه بالموضوع المراد إيصاله إليه، كالإشارات والعبارات والحجج، إذ إنه لا يمكن لأي مخاطِب أن يستغني عن هذا الأسلوب الذي يهدف إلى استهواء المتلقي واستمالته، كما أن لهذا المصطلح جذور عريقة في التاريخ تمتد من أول ظهور له في البلاغة اليونانية عند سقراط وأرسطو إلى الدراسات المعاصرة الغربية والعربية، وذلك لأهمية الحجاج ودوره في الخطاب اللغوي الذي يستعمل في شتى المجالات كالفلسفة والقضاء والأدب.. وغيرها، وليس هذا فحسب بل نجد أنفسنا نستعمله حتى في حياتنا اليومية التي تبنى كليا على الأدلة والحجج أثناء التواصل اليومي، كما أن الوعي ببلاغة الحجاج في تراثنا العربي أمر لا يمكن إنكاره، وذلك لما ظهرت لنا عليه البلاغة الجديدة في اعتمادها البيان والحجاج دون مقاصدها الجمالية، حيث يتم عزل الأساليب البلاغية عن سياقها البلاغي لتتجاوز وظيفتها الجمالية إلى وظيفة أخرى حجاجية إقناعية، ولتبيين تلك الآليات الحجاجية البلاغية ومدى فاعليتها في الخطاب عامة والحديث النبوي خاصة، سنقسم هذا البحث إلى محورين أساسيين، حيث نوضح في المحور الأول تلك الآليات البلاغية وكيف تتحول من آلية جمالية إلى أسلوب حجاجي وما مدى وظيفتها الإقناعية، وأما المحور الثاني فسيكون تطبيقيا على بعض الأحاديث النبوية مستخرجين بعض تلك الآليات الحجاجية مبينين مدى حجاجية الخطاب النبوي الشريف وما هي أبرز الآليات البلاغية التي اعتمدها.

المحور الأول: الآليات الحجاجية البلاغية.

تكمن حجاجية الوسائل البلاغية "فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة وعلاقات حجاجية تربط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه، أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب، أي أن الحجاج لا غنى له عن الجمال، فالجمال يرفد العملية الإقناعية وييسر على المتكلم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي".[1]

كما أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية".[2]

فعلاقة الحجاج بالبلاغة تكمن في إدراك السامع وإقناعه واستمالته بجمال الأساليب البلاغية، ونذكر من بينها :

أولا: الاستعارة:

قد تعلو الإستعارة استعمال ألفاظ الحقيقة، وذلك لأن المخاطِب لا يلجأ إلى استعمالها إلا لوثوقه في أنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا، و هذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي، أيضا إذ "تُعرَّف الإستعارة الحجاجيّة بكونها تلك الإستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكريّ أو العاطفي للمتلقي"، وهذا هو ما يودّ المخاطِب تحقيقه من خلال استعمالها، ومثال ذلك قول عروة بن الورد:

ثعالب في الحرب العوان، فإن تبخ وتنفرج الجلى، فإنهم الأسد

فاستعارات عروة هي استعارات حجاجية، لأنّه يصف قومه في حالتي الحرب والسلم، ولا يمكن إلا أن يصفهم بالوصف الذي يجعلهم في مرتبة أعلى من غيرهم، ولذلك نظر في السّمات التي يمكن أن تحقق ذلك فوجد أنها الدّهاء والحيلة في الحرب، والحرص والشجاعة في السلم.[3]

ويفترض طه عبد الرحمان عددا من الإفتراضات لبناء النظرية التعارضية للإستعارة في الحجاج وهي:[4]

- أن القول الإستعاري قول حواري، وحواريته صفة ذاتية له.
- أن القول الإستعاري قول حجاجي، وحجاجيّته من الصنف التفاعليّ نخصه باسم التحاجّ.
- أن القول الإستعاري قول عملي، وصفته العملية تلازم ظاهره البيانيّ والتخييليّ.

وتكمن فعاليّة الإستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق، إذ تمثل الإستعارة أبلغ و أقوى الآليات اللغوية، رغم اكتناف السياق لكثير من العناصر، ويظهر التوجه العملي للإستعارة في ارتكازها على المستعار منه، إذ تكون الإستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همة المخاطَب إلى الإقتناع.[5]

فتعد الإستعارة أفضل ضروب المجاز وأشدها وقعا على النفس وتأثيرا في العقل كما تؤخذ أنواع المجاز الأخرى على حدّ الإستعارة في قوتها وهذا يتوقف على معرفة المتكلم بضروب المجاز وكيفية توظيفها، وخلاصة الأمر أن الإستعارة أحد أهم الوسائل الحجاجيّة التي يستعملها المخاطِب في استمالة المخاطَب لأجل إقناعه.

ثانيا: الكناية:

كما تعد الكناية أيضا من أنواع المجاز الحجاجية ويكمن هذا في الرمز الذي تنشئه فهي احتجاج لقضية عن طريق الرمز، وما يثبت حجاجيتها مراد المتكلم من الرمز، وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي نحو: زيد طويل النجاد، نريد بهذا التركيب أنه شجاع عظيم فعدلت عن التصريح بهذه الصفة إلى الإشارة

إليها والكناية عنها، لأنه يلزم حمالة السيف صاحبه ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادة فإذا المراد طول قامته.[6]

والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه.[7]

إذن فالكناية هي أن نقول شيئا نريد به شيئا آخر لم نصرح به، كقولنا فلان كثير الرماد دلالة على كرمه، أو من حديث عائشة رضي الله عنها، أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن للنبي عليه الصلاة والسلام: أينا أسرع بك لحوقا؟ قال:" أطولكن يدا" فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدا، فعلمنا بعد ذلك أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقا به، وكانت تحب الصدقة،[8] فقد أراد عليه عليه الصلاة والسلام بقوله :" أطولكن يدا" أي أكثركن صدقة، ومنه فطويل اليد هو الكريم، وبهذا تكون الكناية أحد الوسائل التبليغية والحجاجية في الوقت نفسه.

ثالثا: التمثيل:

إن ضرب الأمثال يستفاد منه بأمور كثيرة، وتقريب المراد للعقل، وهي أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، وهذا ما يثبت حجاجيته واقتناع المتلقي عند استعماله.

إذن فالتمثيل هو كما يعرفه عبد الهادي بن ظافر الشهري بقوله: وفيه تعقد "الصلة بين صورتين ليتمكن المُرسِل من الإحتجاج وبيان حججه ".[9]

أي هو عقد الصلة بين صورتين، ليتمكّن المخاطِب من الإحتجاج وبيان حججه، وهو ما يعمد إليه كثير لبيان الحال، والإقناع بما يذهبون إليه وذلك مثل قول عبد الخالق عطية عن أدوار الجامعة إذ يشبّهها بالطفل فيقول : "إن الجامعة، في أيّ بلد من بلاد العالم، خاضعة دائما ككلّ كائن لنواميس العمران، تبتدئ جنينا، أي فكرة ثم تخرج طفلا، ومن هنا يبتدئ دور الإنشاء ثم تترعرع فتصير صبيا بعناية أصحابها، ثم تنمو فتصبح شابا، ثم كهلا ثم شيخا، ثم يجمع اختبارات القرون وتجاربها وحينئذ تكون جديرة بالبذل حريّة بالإسعاد أيها السادة : كلنا نعرف أن ما ينفق على الطفل أقل ممّا ينفق على الصبي، وما يقتضيه حال الصبي أقل مما يقتضيه حال الشاب، وهكذا الحال بالنسبة إلى الكهل والشيخ، خصوصا في مثل هذه المسألة التي نحن بصددها ".

فهو يريد أن يقنع المجلس هنا، بأن الجامعة مازالت فتيّة ولم تبلغ تلك المرحلة التي تستحق فيها هذه النفقة، كما لا يستحقها الصغير، في حين أن مرحلة الصرف والإنفاق متأخرة قليلا كما هي مرحلة الإنفاق على الإنسان.[10]

فالتمثيل إذن هو طرح الحجج واستعمالها عن طريق التمثيل للشيئ المراد بشيئ آخر معروف لدى المخاطَب بحيث يكون منطقيا فيتقبل هذا الطرح الجديد بطريقة عقلانية منطقية تجعل من اقتناعه به أمرا أسهل.

رابعا: البديع (الطباق):

يستعمل المخاطِب أشكالا تصنف بأنها بديعية، ولا يقف دورها عند الوظيفة الشكليّة فقط، بل لها دور حجاجي لا على سبيل الزخرفة، وإنما بهدف الإقناع حتى لو تخيل الناس غير ذلك، بيد أن البلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات، ومليئة بالشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائف هذه الصور، وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها.[11]

وفي هذا الشأن يقول طه عبد الرحمان: " وإذا أدركنا أن الآليات القياسية التي تتحكم في بناء الخطاب الطبيعي، تقوم في عمليات التفريق والإثبات والإلحاق وأن هذه الآليات الحجاجية هدفها الإفهام، تبيّنا أن أساليب البيان مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها ليست اصطناعا للتحسين والبديع وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ.[12]

فالبديع زينة للكلام وجمال في القول، وهذه الزينة والجمال يفعلان في المتلقي فعل التأثير للإقناع، وتكمن حجاجية البديع في أمرين :

- أحدهما قدرة الألفاظ البديعية والمعاني الجميلة التأثير على المتلقي بموقعها الموقع الحسن من نفسية المتلقي وبسحرها تقوده إلى الإقتناع.

- وثانيتها أن كل قيمة جمالية في البديع تخص المعنى وتخص اللفظ، ما يؤكد اقتران الجمال بالإقناع، فالمعنى يكون مقنعا، ولزيادة هذا الإقناع يحتاج إلى لفظ يزيده جمالا فتزيد قدرته التأثيرية على المتلقي.[13]

فالبديع اللفظي والمعنوي وسيلة استمالة وتأثير,إلى جانب دوره الجمالي في نفس الوقت هو يؤدي وظيفة حجاجية لأنه أنفذ للأذهان والأسماع وأكثر وقعا على القلوب وأدعي للإمتثال والإذعان.

_ ومن المحسنات البديعية الطباق :

ويفيد هذا المحسن المعنى، وهو اتجاه واضح في الحجاج، حيث يقوم الطباق بوظيفة حجاجية هي توضيح المعنى، حيث يدعم المعنى بقوة الوضوح، ويجعل الدلالة واضحة

مقنعة، والطباق وسيلة مقنعة حجاجية يوضح، يحسن، ينمق، وقوع المعنى_في ذهن القارئ موقعا يجعله يقتنع، ويتحقق هذا حين يجمع الطباق بين معنيين متقابلين، وهذا يبين موقع الطباق_في الحجاج وقيمته الإقناعية، لأن المطابقة "الجمع بين الشيئ وضدّه_في الكلام، وهو نوعان: طباق الإيجاب وهو ما لم يختلف فيه الضدّان إيجابا و سلبا، وطباق السلب ما اختلف فيه الضدّان إيجابا وسلبا.[14]

المحور الثاني: حجاجية الخطاب النبوي بلاغيا (دراسة_في نماذج مختارة)

يعتمد الخِطاب_في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حُججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحُف بخطابه.[15]

ومن أبرز الخطابات الحجاجية الخطاب النبوي الشريف، حيث لا يخفى عن أحد أن أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام من أرقى الأساليب و أبلغها، كما حوت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، صنوف البلاغة، وألوان الجمال والفصاحة، وكانت من أبرز مظاهر عظمته، وأبرز دلائل نبوته، وعبرت أدق تعبير عن سمو نفسه، صلى الله عليه وسلم، وأبانت عن المنبع العذب الذي نهلت منه، وقد تبارى العلماء والبلغاء_في وصف فصاحته، وما امتاز به كلامه صلى الله عليه وسلم، من جمال وبلاغة جعلته يتربع على قمة الأساليب البشرية تأثيرا على النفوس واستمالتها واقناعا لها، ومن هنا سنحاول أن نستخرج أبرز الآليات الحجاجية البلاغية التي اعتمدها الحديث النبوي الشريف.

أولا: حجاجية الاستعارة:

إذا عدنا إلى الحديث النبوي سنجده مليئا بهذه الآلية الحجاجية، ومثال ذلك:

قوله صلى الله عليه وسلم:« إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمسِ فَأَخِّرُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَرتَفِعَ، وَإِذَا غَابَ حَاجِبُ الشَّمسِ فَأَخِّرُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَغِيبَ ».[16]

نجد_في الحديث أنه استعار لفظة(حاجب) وهي تخص الإنسان واستعملها للشمس، ويعني بها طرف قرص الشمس إذا طلع أو غرب، وباستعمالها يشدّ السامع أكثر لوقعها الحسن في النفس فالإستعارة تأسر النفس وتعمل الفكر بتأثيرها_في الحواس، وهذا ما يجعلها أقوى حجاجيا من الكلام العادي، فيقتنع المخاطَب بكلام مخاطِبه، حيث يريد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، من خلال قوله هذا أنَّ الصلاة تُكره_في ذلك الوقت أي عند طلوع حاجب الشمس وعند غروبه، ذلك لأنها "...تطلع بين قرني شيطان...".[17]

ولأن كثيرا الكفار كانوا يسجدون لها_في هذا الوقت، فنهى النبي عليه الصلاة والسلام عن الصلاة_في مثل هاته الأوقات. ونمثل لها كالآتي:

_ الحجة الأولى: طلع حاجب الشمس.
– الحجة الثانية: غاب حاجب الشمس.
– النتيجة: النّهيُ عن الصّلاة_في مثل هذه الأوقات.

ثانيا: حجاجية الكناية:

ومن أمثلة ذلك_في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم:« لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ ».[18]

فقد أورد الرسول عليه الصلاة والسلام خلال حديثه الشريف حجة على شكل كناية, ليصل إلى أهدافه الحجاجية التي ترمي إلى إقناع المتلقي وتحريك آليات الفهم والتأويل لديه, فيقول:"لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين" حجة تفضي إلى نتيجة ضمنية وهي أن المؤمن كيّسٌ فطِنٌ, وأن لا يكون غبيا يخدع مرتين من نفس المكان أو بنفس الطريقة, ولا يكرر نفس الخطأ مرتين, وقد جاءت الكناية حجة لنتيجة ضمنية تفيد أن المؤمن كيس فطن.

– الحجة: لا يلدغ المؤمن مرتين.
– النتيجة (ضمنية): المؤمن كيس فطن.

ومثال آخر من الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ، ثُمَّ لِيَنْثُرْ، وَمَنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلْيَغْسِلْ يَدَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا فِي وَضُوئِهِ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ».[19]

نجد_في قوله عليه الصلاة والسلام: (..لَا يَدرِي أَينَ بَاتَتْ يَدُهُ), كناية عن نجاسة, وعن وقوع اليد على ما يتجنب النبي صلى الله عليه وسلم التصريح به، نرى أن الكناية المستخدمة_في الحديث هي كناية عن موصوف, أي الشيئ المتجنس و أشير إلى مكانه باستخدام كلمة تبنى عن المكان (أين)، وهذا من جمال الكناية وقدرتها الحجاجية حيث_في الحديث نهي عن إدخال اليد_في الإناء عند الاستيقاظ من النوم, وتبيين لوجوب غسلها أولا. فالكناية جاءت حجة لنتيجة هي وجوب غسل اليد قبل الوضوء.

– الحجة: لا يدري أين باتت يده.
– النتيجة: وجوب غسل اليد قبل إدخالها_في الوضوء.

ثالثا: حجاجية التمثيل:

ومن أمثلته_في الحديث النبوي:

قوله صلى الله عليه وسلم:« مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا

أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».[20]

في هذا الحديث الشريف نجده عليه الصلاة والسلام قد شبّه العلم والهدى الذي جاء به بالغيث الكثير لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والنفع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد، وشبّه الناس بالأراضي التي وقع عليها المطر لأنها المحل الذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع، حيث قسم الناس إلى ثلاثة أقسام وشبه كل قسم بنوعية الأرض وعطائها.

أحدها: أهل الحفظ والفهم للعلم الذين حفظوه وفهموا معانيه واستنبطوا أحكامه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

القسم الثاني: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظ العلم ونقله ولم يرزقوا تفقها ولا استنباطا في معانيه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به وسقوا وزرعوا.

القسم الثالث: هم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا، ولم يقبلوه فهم بمنزلة الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء، فنلحظ أن هذا التشبيه والتمثيل قد زاد في المعنى وضوحا أكثر فيضع السامع أمام الصور المشبهة فيزيد بها تقبلا واقتناعا، ذلك للربط المنطقي بين الأمر المحسوس والتمثيل له بشيئ من الواقع كما في الحديث.

وقد جاء هذا التمثيل على شكل حجج كالآتي:

التمثيل لهدي النبي وعلمه ب(الغيث الكثير).

- حجة (01): أرض نقية تنبت الكلأ والعشب، التمثيل لمن فقه في العلم وأخذ به واتبع هدي النبي ب(الأرض النقية).
- حجة (02): أرض جدباء تمسك الماء لينفع الناس، التمثيل لمن أخذ العلم ونقله ب (الأرض التي تمسك الماء).
- حجة (03): قيعان أرض لا تنبت العشب ولا تمسك ماء، التمثيل لمن لم يقبل هدى الله وما جاء به النبي ب(قيعان الأرض).
- النتيجة: بيان فائدة العلم وأهمية اتباع ما جاء به الرسول الكريم.

ونذكر مثالا آخر:

قوله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حدِّثُونِي مَاهِيَ؟ » قَالَ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ ».[21]

في هذا الحديث الشريف استعمل الرسول عليه الصلاة والسلام المثل ويشبه المسلم بالنخلة، وبهذا التشبيه يقرب لهم المعنى المراد من كلامه أكثر، حيث أن النخلة دائمة الخضرة لا يسقط ورقها طول العام، ولا ينعدم ظلها، ولا يبطل نفعها، ولاينقطع من البيوت على مر الأيام ثمرها، كما نجد أنها ذات جذور طويلة جدا حتى تحصل على الماء من باطن الارض، كما أننا نستفيد بكل جزء من النخله، فمن حين يطلع ثمرها إلى أن ييبس يؤكل أنواعا، تمرا ورطبا، هذا غير ما ينتفع به من ثمرها وجريدها وليفها وجذعها حتى النوى ينتفع فى علف الدواب، وهذا حال أصل المسلم فيبقى هو أيضا دائما به خير وهذا المراد من التشبيه الذي يمتلك قدرة حجاجية هائلة لا يحققها الكلام العادي، وعليه فإن هذا المثل بالتشبيه يتفق مع الغرض الذي سيق من أجله، فقد عمد المرسِل إلى تشبيه النخلة وفضائلها بالمسلم و أن له نفس الفضائل تلك.

رابعا: البديع (الطباق):

ومن أمثلة الطباق في الحديث النبوي نذكر: قوله صلى الله عليه وسلم: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا».[22]

وقوله عليه الصلاة والسلام: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ, ويَظْهَرَ الجَهلُ, ويَظْهَرَ الزِّنا وتَكْثُرَ النِّساءُ, ويَقِلَّ الرِّجَالُ, حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةٍ القَيِّمُ الوَاحِدُ».[23]

نجد أنّ الطباق في كل من: (يسّروا/ تعسّروا)، (بشّروا/ تنفّروا)، (العلم/الجهل)، ونلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام قد استعمل هذا الجنس البلاغي بكثرة في هذه الأحاديث وغيرها، نظرا لأهميته في عملية الإقناع والتأثير، لما للطباق من قوة حجاجية في استمالة المتلقين عبر صوره الحسية والمعنوية، التي تصوّر الواقع بماديته أحيانا، وتلامس المشاعر والعواطف أحيانا أخرى، إضافة إلى وقعها الموسيقي وجرسها المتناغم الذي يشد الانتباه، ويُركّز تفكير المتلقي على الخطاب، وبالتالي فإن الاستعانة بهذا المحسن البديعي الذي كان جزءا من تركيب الكلام ونظمه، ووسيلة من وسائل التوصيل، لأنه يساهم في توضيح المعنى وتقويمه ويزيد في قوة التعبير ويحدث جوا من التأثير الايجابي يحدث من خلاله الاقناع.

حيث يستعمل المخاطِب أشكالا تصنف بأنها بديعية، ويقف دورها عند الوظيفة الشكليّة، ولكن لها دورا حجاجيّا لا على سبيل الزخرفة، بل بهدف الإقناع حتى لو تخيل

الناس غير ذلك، بيد أن البلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات، ومليئة بالشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائف هذه الصور، وليس وجودها على سبيل الصنعة_في أصلها.[24]
وفي هذا الشأن يقول طه عبد الرحمان: " وإذا أدركنا أن الآليات القياسية التي تتحكم_في بناء الخطاب الطبيعي، تقوم_في عمليات التفريق والإثبات والإلحاق وأن هذه الآليات الحجاجية هدفها الإفهام، تبيّنا أن أساليب البيان مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها ليست اصطناعا للتحسين والبديع وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ.[25]
فالبديع زينة للكلام وجمال_في القول، وهذه الزينة والجمال يفعلان_في المتلقي فعل التأثير للإقناع، وتكمن حجاجية البديع_في أمرين :
- أحدهما قدرة الألفاظ البديعية والمعاني الجميلة التأثير على المتلقي بموقعها الموقع الحسن من نفسية المتلقي وبسحرها تقوده إلى الإقتناع.
- وثانيتها أن كل قيمة جمالية_في البديع تخص المعنى وتخص اللفظ، ما يؤكد اقتران الجمال بالإقناع، فالمعنى يكون مقنعا، ولزيادة هذا الإقناع يحتاج إلى لفظ يزيده جمالا فتزيد قدرته التأثيرية على المتلقي.[26]
فالبديع اللفظي والمعنوي وسيلة استمالة وتأثير,إلى جانب دوره الجمالي_في نفس الوقت هو يؤدي وظيفة حجاجية لأنه أنفذ للأذهان والأسماع وأكثر وقعا على القلوب وأدعي للإمتثال والإذعان.

خاتمة البحث ونتائجه:

ومن خلال هذا البحث توصلنا إلى عدة نتائج نذكر منها:
_ تكامل الخطاب النبوي الحجاجي بممارسة لغوية بلاغية جمالية تكتنز الدلالة المؤثرة_في السامع، لما لها تحمله من تأويلات جميلة تستثيره عاطفيا ونفسيا.
_ لم يخل الحجاج_في الخطاب النبوي من وظائف قصدية يفرضها الموقف والحاجة فجاء بلغة بلاغية عميقة جدا لاستثارة النفوس واقناعها وتوجيه سلوكها.
_ أن اللغة تملك_في ذاتها الكثير من الآليات الحجاجية، ومرجع سلطة الحجاج ووصوله إلى غاياته المرجوة، يعود إلى الشخص المُحاجج وتمكّنه_في اللغة وقدرته على توظيف الحجج_في كلامه.
_ أن طبيعة لغة الحوار المدرجة_في الحجاج خاضعة لطبيعة المتلقي، فبقدر ما يبعد هذا المتلقي عن المحاجج من حيث الأفكار والمعتقدات والمبادئ، بقدر ما تضعف عملية الحجاج ولا تحقق الاقناع المرجو.

_ أن لغة الحجاج_في الحديث النبوي لم تأتي على شكل فرض وتحريم، بل جاءت لإقناع المتلقي بالدليل والحجج المنطقية.

_ أن الحجاج على مستوى البلاغة هو أن تقوم صورها البيانية و محسناتها البديعية بوظيفة حمل المتلقي على الاقتناع بما يُعرض عليه أو الزيادة_في حجم هذا الاقتناع من خلال الأثر الذي توقعه_في نفسه.

_ اعتماد الرسول عليه الصلاة والسلام_في أحاديثه على الوضوح وتبسيط التعبير، والبعد عن التكلف الذي يصعّب عملية الابلاغ والإبانة، وهذا سبب هام لتبليغ الاقناع.

_ أن الخصائص الحجاجية البلاغية_في الأحاديث النبوية قد وردت بكثرة، ولعل أهم ما يميزها هو طابعها التداولي بحيث تعالج أهم القضايا الدينية والتداولية_في حياة الناس.

الهوامش والإحالات:

1 ـ سامية الدريدي: الحجاج_في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الطبعة 1، 2008، ص 120.

2 ـ صابر الحباشة: التداولية والحجاج مداخل نصوص، دار صفحات للدراسات و النشر، سوريا، الطبعة 1، 2008، ص 50.

3 ـ حافظ إسماعيلي علوي: الحجاج مفهومه و مجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية_في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الجزء الأول، طبعة، 2010م، ص 136،137.

4 ـ طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 1998م، ص310،313..

5 ـ حافظ إسماعيلي علوي: الحجاج مفهومه و مجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية_في البلاغة الجديدة، ص 138.

6 ـ أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة_في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1999م، ص 288.

7 ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2005م، ص 66.

8 ـ عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري(ت 265هـ): صحيح البخاري، ضبط النص محمود حسن نصار، دار الكتب العلمية، ط1، 2001م، كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل، ص 263.

9 ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004، ص 497.

10 ـ حافظ إسماعيلي علوي: الحجاج مفهومه و مجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية_في البلاغة الجديدة، ص139.

11 ـ المرجع نفسه، ص 139.
12 ـ المرجع نفسه، ص 139، 140.
13 ـ عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية، دراسة ـفي نتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2014، ص 296.
14 ـ المرجع نفسه، ص 297.

15 ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004، ص477.
16 ـ الإمام البخاري: صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس، ص 119.
17 ـ المصدر نفسه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ص 600.
18 ـ المصدر نفسه، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين، ص 1124.
19 ـ المصدر نفسه، كتاب الوضوء، باب الإستجمار وترا، ص 48.
20 ـ المصدر نفسه، كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلّم، ص 33.
21 ـ المصدر نفسه، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، ص 29.
22 ـ المصدر نفسه، كتاب العلم، باب من كان النبي يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ص 31.
23 ـ المصدر نفسه، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، ص 33.
24 ـ حافظ إسماعيلي علوي: الحجاج مفهومه و مجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية ـفي البلاغة الجديدة، ص 139.
25 ـ المرجع نفسه، ص 139، 140.
26 ـ عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية، دراسة ـفي نتاج ابن باديس الأدبي،عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2014، ص 296.